العـراق عـام في
المنطقة الحمراء

# ١ الكارثة : كرة الثلج المتحركة

obeikan.com

لم يعد وصف حال العراق بعد الحرب ضده واحتلاله عام ٢٠٠٣ ،محل خلاف وقد سلم الجميع ( سواء من مؤيدي الحرب أو خصومها ) بأنه (كارثة)،ولا عذر لأحد في أن لا يرى الأمور كما هي ويسمي الأشياء بأسمائها ،كونها خروج على الشرعية الدولية والإنسانية وليس لها علاقة بمصطلحات التحرير والديمقراطية والحرب على الإرهاب ، التي اتخذتها الولايات المتحدة الأمريكية شعارات أرادت من خلالها تضليل العالم، وتصوير الحرب ضد العراق واحتلاله وما وصل إليه خلافا للواقع وللكارثة التي حلت بالعراقيين وبلدهم ، والتي لا يمكن حصر أبعادها المادية والإنسانية ،حتى بات ادعاء الولايات المتحدة بأن ما فعلته للعراق هو محاولة لمساعدة العراقيين في بناء بلدهم من جديد، مجرد (نكتة سوداء) تكشف جهل أو ستهتار الولايات المتحدة بقدرة الشعوب على الفهم والرؤية الصحيحتين، وإدراك كذب السياسة الأمريكية وزور الشعارات القانونية والإنسانية التي تتشدق بها .

ولا ندري كيف سيتعامل المؤرخون في المستقبل مع الكم الهائل من الكذب والتشويه والتلفيق الذي رافق غزو العراق واحتلاله وتدميره وسرقته سواء في مرحلة الإعداد أو التنفيذ؟..وكيف سيتعاملون مع التعتيم والتورية الإعلامية والسياسية والمعلوماتية ؟ ، فإدارة الرئيس الأمريكي السابق (جورج دبليو بوش ) سجلت عليها أكثر من(٩٣٥ ) كذبة بينها ( ٢٥٩ ) كذبة سجلت على بوش لوحده ، و(٢٤٤) كذبة لوزير خارجيته كولن باول،فيما تقاسم باقي الأكاذيب نائبه ديك تشيني ووزير دفاعه دونالد رامسفيلد ومستشاره للأمن القومي كوندااليزا رايس[1].

(1) للمزيد راجع كتاب:كذبات بوش الخمس الكبيرة التي أخبرنا بها عن العراق ، لمؤلفيه ( كريستوفر شير وروبرت شير ولاكشمي شودري ) ترجمة :محمود علي عيسى، دار الكتاب العربي/ نينوى ، ٢٠٠٦ . والبحث الخاص بمركز ( فالك انتر غبتني سنتر) المتعلق بسلسلة الأكاذيب التي نشرها بوش وطاقم إدارته،نشر عام ٢٠٠٦ .

كانت غاياتها تبرير الحرب ضد العراق واحتلاله وتأمين مباركة وتمويل ودعم شعبي ورسمي ، لاستمرار احتلال العراق وتبني كل الأسباب الواهية التي ساقتها الإدارة الأمريكية آنذاك لتبرير الحرب والاحتلال، وفي مقدمتها التخلص من أسلحة الدمار الشامل التي لم يكن لها وجود، ومكافحة الإرهاب الذي ظهر في العراق بعد الاحتلال الأمريكي ، فضلا عن تحقيق الديمقراطية والحرية للعراق والتي قضى بسببها أكثر من مليون ونصف المليون عراقي، عدا ملايين العراقيين الذين هاجروا وهجروا من ديارهم احتفاء بهذه الحرية الرائعة وهذه الديمقراطية الزاهية.

وبرغم الكارثة التي ألحقوها بالعراق وبأنفسهم ، إلا أن أركان النظام الأمريكي ومنذ عام ٢٠٠٣ وحتى اليوم ،وبرغم مجيء إدارة جديدة ،تمسكوا بإصرارهم على محاولات حرف الحقائق وتشويه الوقائع وإخفاء الرقم الحقيقي لإعداد قتلاهم وجرحاهم و المصابين بالجنون والاضطرابات النفسية الذين ضاقت بهم المستشفيات والمصحات الخاصة داخل الولايات المتحدة الأمريكية وخارجها ،أما الهروب من صفوف أقوى وأعظم جيش في العالم وعدم الاستجابة لدعوات التجنيد ، فقد باتت أكثر من حالات تخلف المطلوبين للخدمة العسكرية والجنود الحفاة الهاربين من بعض جيوش العالم الثالث ( وفقا للتصنيفات الغربية والأمريكية للدول والشعوب ) ، فضلا عن حالات الانتحار داخل الجيش الذي لا يقهر .

# الحصاد المر

عندما وضع الرئيس الأميركي السابق ( جورج دبليو بوش ) قرار الحرب ضد العراق واحتلاله ،موضع التنفيذ في مارس/ آذار عام ٢٠٠٣، لم يكن يتوقع أن العراق سيكون بعد الاحتلال، الكابوس الذي سيؤرق الولايات المتحدة ويدفع بها إلى الانكسار، مع تصاعد مقاومة العراقيين واستنزاف الولايات المتحدة عسكريا وبشريا واقتصاديا بخسائر فادحة ، تعبر عن جانب منها التكاليف الاقتصادية التي وردت في الدراسة المشتركة التي أجراها الدكتور( جوزيف ستيغليتز) والبرفسورة (لندا بليمس) تحت عنوان : (التكاليف الاقتصادية لحرب العراق ) والتي أكدت أن التكلفة الحقيقية للحرب تتراوح بين (٧٥٠) مليار دولار و (٢ , ١) تريليون دولار (العام ٢٠٠٦ ) ونحو (ثلاثة) تريليونات دولار إذا بقي الاحتلال لعام ٢٠٠٨ وما بعده،استنادا للمعيار المعتمد والحسابات الحذرة والمعتدلة والمتحفظة[١].

ولم يكن الرئيس الأميركي (جورج دبليو بوش ) وإدارته بحاجة إلى زمن طويل لإدراك أن ما عدوه نزهة، قد صار كابوسا وفاجعة أميركية ،فقد انقلبت بشارة النصر التي زفها (جورج دبليو بوش ) للشعب الأميركي في الأول من مايو / ايار٢٠٠٣ وهو يعلن من على إحدى السفن الحربية الأمريكية بان الحرب ضد العراق قد انتهت وان النصر قد تحقق ، إلى واحدة من اكبر الأكاذيب التي فضحها

( ١) علي باكير ، العراق والتراجع الأميركي ، بحث منشور ، مجلة البيان ( التقرير الاستراتيجي ) الواقع الدولي ومستقبل الأمة ، الإصدار الخامس ، ٢٠٠٨ ، ص ١٩٥ . ولمزيد من المعلومات: جوزيف ستغليتز ولندا بيلمز ، الكلفة الحقيقية لحرب العراق ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ٢٠٠٩ .

المأزق الأميركي الكبير في العراق والذي تحول إلى معضلة لا حل لها ، تستنفد الكثير من الأموال والدماء الاميركية،فضلا عن الخسائر السياسية والأخلاقية الهائلة التي أكلت وتأكل من جرف القوة الأميركية لصالح كل القوى الدولية، التي تطمح بإزاحة الولايات المتحدة الأميركية عن سدة الزعامة العالمية.

إن السنوات الماضية من عمر الاحتلال الأميركي للعراق ، كانت حافلة بالكثير من الخطط الاستراتيجية والتكتيكية الأميركية لمواجهة المأزق العراقي، إلا أن نتاج عقول القادة العسكريين الأميركيين ومستشاري (بوش ) الأمنيين والاقتصاديين والسياسيين في صياغة كل الخطط ، كان بلا جدوى في مواجهة مستنقع يتسع ويزداد عمقا بفعل المقاومة العراقية.

وهي نتيجة استشعرتها الأطراف التي ساندت الاحتلال وحاولت بكل الوسائل أن تمنحه الشرعية،حيث لم تمض سوى شهور معدودات على بداية الاحتلال حتى بدأت تلك الأطراف تشعر بالقلق الشديد من عدم قدرة المشروع الاحتلالي من تقديم أدلة على حركته باتجاه الأهداف والغنائم التي قالت الولايات المتحدة أنها ستتحقق حتما بمجرد احتلال العراق ، الأمر الذي جعل التحالف الذي أقامته الولايات المتحدة في حربها واحتلالها للعراق ، يتعرض لتصدعات وضربات عدة كان أبرزها إعلان أسبانيا وايطاليا الحليفين الأهم للولايات المتحدة بعد بريطانيا ، سحب قواتهما من العراق عقب تغيير النظم السياسية الحاكمة فيها بفعل تداعيات هذه الحرب، كما أن بريطانيا نفسها ( التي تعتبر اكبر حلفاء أميركا في الحرب ضد العراق واحتلاله ) قد اضطرت إلى العودة إلى دفاترها الاستعمارية القديمة يوم كانت الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس ،وتفتش فيها عن تاريخها الاستعماري القديم في العراق وتستخلص منه الحكمة بتقليص قواتها والتمهيد للإنسحاب من العراق قبل أن تضطر للهرب مثلما حصل لها إبان احتلالها الأول

للعراق في بدايات القرن الماضي ،لذلك عملت على تخفيض قواتها من(٤٦٠٠٠ ) ستة وأربعين ألف مقاتل في عام ٢٠٠٣ إلى نحو (٤٠٠٠ ) أربعة آلاف مقاتل ، تم سحبهم جميعا فيما بعد بحدود شهر حزيران/ يونيو٢٠٠٩ ، فضلا عن كون باقي الحلفاء من الدول التي ساقتها الولايات المتحدة للمشاركة في الحرب ضد العراق واحتلاله كجزء من عملية التضليل التي مارستها ( واشنطن ) لإضفاء الشرعية على فعل غير شرعي بكل المقاييس ، قد وجدوا فرصتهم في اتخاذ قراراتها بالانسحاب من العراق بعد أن أدركوا حجم الكارثة الأميركية ، الأمر الذي جعل التحالف ينفرط بخاصة بعد أن استطاعت المقاومة العراقية أن تفتح الباب واسعا أمام كل شعوب الأرض ودولها ، لكي ترى الولايات المتحدة على حقيقتها، ولتجعلها تدرك بالملموس أن مفهوم القوة هو مفهوم نسبي قد لا يرتبط بما تمتلكه أي دولة من جيوش وأسلحة[1].

أما حصاد العراقيين المر ومحنتهم الكبيرة نتيجة الاحتلال ، فقد تجاوز كل التوقعات من حيث حجم التضحيات وعمق التأثير والانتشار ، فقد بلغ عدد القتلى حسب مجلة لانسيت البريطانية نحو (٦٥٥ ) ألف عراقي وحسب منظمات عراقية غير حكومية وفصائل المقاومة تجاوز العدد (مليون ونصف المليون) عراقي[2]،أما عدد المهجرين داخل العراق وخارجه وفقا لبيانات وزارة الهجرة العراقية وبعثة الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين (أربعة) ملايين ، وحسب تقديرات العديد من المنظمات والهيئات العراقية(سبعة) ملايين (ثلاثة ملايين داخل العراق وأربعة ملايين خارجه )فيما بلغت نسبة البطالة أكثر من (٦٠٪ )، وتبعا لذلك ارتفعت

(1)محمد أحمد النابلسي ، التداعيات المستقبلية لاحتلال العراق ، بحث منشور ، المركز العربي للدراسات المستقبلية ، تموز ٢٠٠٦.

(2) صحيفة الحياة ، لندن ،عدد يوم ١/ ٢/ ٢٠٠٨ .

نسبة العراقيين (تحت خط الفقر ) إلى أكثر من (٥٠٪ ) من عموم المجتمع العراقي، والنسبة قابلة للزيادة بشكل سريع في ظل اتساع البطالة وارتفاع مستوى أسعار السلع الأساسية وانتشار الأزمات في كل القطاعات دون استثناء، وتفشي ظاهرة الطبقات الطفيلية والمستفيدة التي تعمل على استغلال حاجة العراقيين إلى أي سلعة أو أي خدمات للمتاجرة فيها من دون وجود جهة رقابية وجهات رادعة ،بخاصة في ظل أزمات الوقود والكهرباء والمياه والخدمات الطبية والأدوية والأجهزة والمعدات الطبية والمواصلات فضلا عن الفساد ونهب الأموال العامة التي جعلت منظمة الشفافية الدولية تضع العراق على رأس قائمة البلدان الأكثر فسادا في العالم بعد الصومال وماينمار[1] فضلا عن تقارير لمنظمات دولية أخرى اعتبرت العراق على رأس قائمة الدول الأكثر خطرًا والأكثر انتهاكا لحقوق الإنسان والأكثر طردا لمواطنيه وأكثر البلدان استهدافا للعلماء وأصحاب العقول والكفاءات والخبرات، فكل العلماء و الأساتذة الجامعيين صاروا بعد الاحتلال أهدافا للترهيب والتهديد والخطف والقتل ، حيث بلغ عدد الذين تم قتلهم وفقا لتقديرات وإحصاءات موثقة أكثر من (٣٧٢ )عالما وأستاذا جامعيا[2].

إن كل هذه التقارير ووقائع مفكرة أيام العراقيين تؤكد أن المحتلين وحكومات الاحتلال المتعاقبة وأحزاب وقوى وشخصيات العملية السياسية منذ عام ٢٠٠٣ وحتى الآن ، انغمسوا في مخطط تدمير ونهب العراق وهم غير معنيين بحل مشاكل العراقيين وتخليصهم من معاناتهم اليومية . حتى وان ادعى هؤلاء عكس ذلك ورفعوا الشعارات ونشروا الملصقات في حملاتهم الإعلانية (إبان ما يسمونها

(1) موقع أخبار العراق الالكتروني ، ٢٠/ ٣/ ٢٠٠٧ .

(2)حسين الرشيد ، اغتيال الكفاءات العراقية ، مجلة حضارة ، مركز الأمة للدراسات والتطوير ، العدد الأول ، كانون الثاني ٢٠٠٩،ص١٩١-٢١٩

انتخابات ،والتي تشير إلى وعود بتلبية مطالب العراقيين والحرص على إنهاء معاناتهم ،كما فعلوا في انتخابات عام ٢٠٠٥ وانتخابات مجالس المحافظات عام٢٠٠٩ وانتخابات عام ٢٠١٠ [١]، التي أثرت عدم ثقة العراقيين بكل الشخصيات والقوى والأحزاب العاملة على الساحة العراقية،وإدراكهم أنها صنيعة الاحتلال ومسؤولة معه بشكل مباشر عن كل المشاكل والمعاناة التي واجهتهم منذ الاحتلال وحتى اليوم، وهم يفعلون ذلك بدوافع سياسية تهدف إلى جعل حياة العراقيين جحيما لا يطاق ،كنوع من العقاب الجمعي للعراقيين لدعمهم المقاومة وتأمين الحاضنة لهم ووقوفهم ضد الاحتلال ، وللضغط أكثر على العراقيين في الداخل لإجبار أعداد كبيرة أخرى منهم للهجرة وبما يفرغ العراق من أهله ويقلص الحاضنة الشعبية للمقاومة ، من خلال استهداف العراقيين بعمليات القتل والترهيب والاعتقالات والمداهمات وانتهاك كل الأعراف والقوانين والقيم التي تربى عليها شعب العراق،فضلا عن مصادرة الحريات وقمع الصحافة وأجهزة الإعلام الأخرى ، حتى لا يبقى على الساحة غير الأجهزة الإعلامية الموالية لهم والمؤيدة للاحتلال،حيث تشير المصادر المختلفة إلى أن قوات الاحتلال وقوات حكومات الاحتلال المساندة لها ، قتلت ( ٢٦٧ ) صحفيا وإعلاميا بينهم (٢٤) إعلاميا من غير العراقيين منذ بداية الاحتلال وحتى شهر كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٨ ،ليس لكونهم في صفوف المقاومة،بل لأنهم حاولوا نقل صور من جرائم الاحتلال وفضائحه بحق العراقيين[٢].

العديد من التقارير والدراسات والبحوث التي تناولت الوضع العراقي بعد الاحتلال الأمريكي ،حددت جملة نقاط يمكن من خلالها معرفة ما يحصل في العراق وأسبابه ، ومن بينها دراسة أستاذ الاجتماع الأميركي( مايكل شوارتز) مدير

(1) صحيفة العراق الالكترونية ،المركز العراقي للدراسات الاستراتيجية ، العدد ٨٢٧ ، ١/ ٢/ ٢٠٠٨.
(2) جريدة الأسبوع الأدبي الالكترونية ، العدد ١٠٨٧ ، ١٩/ ١/ ٢٠٠٨

كلية الدراسات العالمية بجامعة (ستوني بروك ) التي أعدها عام٢٠٠٦ [1] والتي حاول من خلالها الإجابة على سؤال مفاده : كيف نفهم ما يحدث في العراق ؟ ، حيث يقول أن هناك سبع أسرار تحاول الولايات المتحدة الأميركية إخفائها والتي يمكن أن نفهم في ضوئها الواقع العراقي بعد الاحتلال ونتوقع على أساسها المستقبل ،ويمكن تلخيص هذه الأسرار السبعة على النحو التالي :

١-الاحتلال الأميركي هو السبب الرئيسي لتزايد العنف في العراق.

٢-أميركا هي التي أنشأت فرق الموت وأطلقت يد الميليشيات ومولتها ودفعت بها لاستهداف المقاومة والعقول والكفاءات العراقية وإشاعة الطائفية.

٣-الحكومة العراقية ليس لها وجود خارج المنطقة الخضراء ، وقوات الاحتلال (الأميركية وغيرها) لا تستطيع أن تتحرك في معظم أنحاء العراق.

٤-حركة المقاومة تنمو في العراق ولا تقتصر على ( المناطق السنية ) كما تدعي أميركا وأجهزة استخباراتها والمتعاونين معها ، بل تشمل كل أجزاء العراق .

٥-الجيش الأميركي والقوات التابعة للحكومة العراقية يتولون قتل واعتقال المدنيين واستهداف المدن والقرى وتعميم الرعب في محاولة لمنع العراقيين من مساندة المقاومة.

٦-إن محاولات استهداف رموز الحكومة وقواتها الأمنية سببه مساندتهم للاحتلال وليس لأسباب خاصة أو لأسباب دينية وطائفية وعرقية .

٧-كل الأطراف في العراق تواجه احتمالات غير محسوبة ، أهمها إمكانية تقسيم العراق بتداعيات الاحتلال والوضع الراهن، أو بلجوء أميركا إلى ذلك كجزء من خارطة الخروج من العراق.

(1) سليمان صالح ،ماذا يحدث في العراق ،دراسة منشورة ،صحيفة الشرق القطرية ،٩/ ٩/ ٢٠٠٦

# الجناة والضحايا

لم تقتصر كارثة الاحتلال على فئة معينة من العراقيين دون أخرى ، فقد تعرض كل شعب العراق إلى ما يشبه الزلزال بدرجة (٩ , ٩ )على مقياس ريختر ، الذي لم يبق أي عراقي من دون أن يكون له قريب قتيل أو معوق أو مفقود أو خلف قضبان السجون[1] ، أو مهجراو لاجيء في دول الشتات ، وهي بلا شك معطيات رسمت أمام العالم ( صورة كارثية )للعراق بكل ما يحمل المصطلح من مضامين وتداعيات واستخلاصات إجرامية لم يشهدها التاريخ من قبل ،إذ أن ممارسات المحتلين في العراق لم تترك مجالا من مجالات الحياة العراقية إلا وألحقت به ضررا هائلا ، ولم تترك أسرة عراقية إلا ونكلت بأفراد منها ، قتلا واعتقالا وتعذيبا ، فالجريمة تحولت في العراق على أيدي المحتلين وأعوانهم إلى تطبيقات إرهابية دموية تدميرية مروعة ضد كل مكونات الوطن العراقي دون استثناء،ولعل اعتبار المرأة العراقية اكبر ضحية من بين فئات الشعب العراقي ، له دلالاته الواضحة في تعميم الأذى على

(1) في عام ٢٠٠٨ ظهر أن عدد العراقيين الذين تم اعتقالهم للفترة من عام ٢٠٠٣ وحتى عام ٢٠٠٨ قد بلغوا أكثر من مليوني معتقل ،وقد جرى التوصل إلى إحصائية المعتقلين المليونية هذه، من خلال( بحث) اعتمد متابعة ودراسة دقيقة للأرقام والإحصائيات الصادرة عن قوات الاحتلال( حصراً) على مدى تلك السنوات الخمس فقط. قام بالبحث نيك موتيرن، مدير منظمة «مستهلكون من أجل السلام» في واشنطن، وبيل راو الباحث في مجال التنمية. ونشراها بشكل تقرير مكوّن من جزأين على موقع منظمة «تروث آوت» أو كشف الحقيقة.الأمر الذي يعني أن ليس هناك عائلة عراقية إلا وقد تعرض احد أفرادها( أو أقاربها) إلى الاعتقال في فترة من الفترات تحت ظل الاحتلال .

كل المجتمع العراقي،وبهذا الصدد تشير دراسات عديدة إلى أن الأرامل اللواتي تركن دون معيل منذ الاحتلال الاميركي للعراق عام ٢٠٠٣، يصل عددهن إلى اكثر من مليون امرأة ، يفتقرن لسبل اعالة انفسهن وأولادهن ، مما يتركهن ضحية للاضطهاد والفقر والاستغلال البشع ،وتشير الكاتبة العراقية هيفاء زنكنة في كتابها(مدينة الأرامل: المرأة العراقية في مسيرة التحرير ) أن أكثر من تسعين امراة تترمل يوميا نتيجة استمرار العنف في جميع أنحاء العراق ..وان الإعداد في ازدياد كل يوم بسبب استمرار اختفاء الرجال ، وترك العائلات بلا معيل ، وليس في حيازة الأرامل سوى النزر اليسير من الموارد[1] .

(وبالتأكيد ليس هناك من يفكر في الولايات المتحدة بمحاسبة من اتخذوا قرار الحرب ضد العراق واحتلاله ، حتى بعد اعتراف الرئيس الأميركي الثالث والأربعين للولايات المتحدة (جورج دبليو بوش ) الذي قاد الحرب ضد العراق واحتلته جيوش أمريكا والمتحالفين في الشر معها عام ٢٠٠٣ بقرار منه ،بان قراره هذا كان مبنيا على أساس معلومات مغلوطة . كما ليس هناك من يجرؤ في المجتمع الغربي،الذي يدعي حرصه على حقوق الإنسان والشرعية الدولية ، أن يسعى إلى تجريم الذين ارتكبوا هذه الكارثة المترامية الأطراف بحق بلد وشعب امن ، وعمدوا فيه قتلا وتدميرا وخرابا ، واستباحو حياته وكرامته بشكل همجي،حتى حولوا أيام كل العراقيين إلى محنة كبيرة وهّم لا خلاص منه .

أن واقع وشكل وطبيعة الكارثة التي حلت بالعراق والعراقيين، (نتيجة الاحتلال وديمقراطيته –المعلبة- التي جاءت بأثر جزمات الجنود المحتلين وهم يجوسون الديار وينتهكون كل المحرمات،خلافا لكل التصريحات عن التقدم

(1)هيفاء زنكنة ،مدينة الأرامل –المرأة العراقية في مسيرة التحرير،مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ،٢٠٠٨،ص١٢٠.

واستتباب الأمن والتمتع بحقوق الإنسان، التي لا ينفك المسؤولين الأمريكيين والمسؤولين في الحكومة العراقية، إطلاقها في كل يوم)، يمكن أن تدل على جوانب منها سبع قوائم عالمية صدرت في عامي ٢٠٠٩ و٢٠١٠، جاء فيها ذكر العراق مثلما جاء فيها ذكره في الأعوام التي سبقته.

القائمة الأولى هي التي تصدرها سنويا (منظمة الشفافية الدولية)، حيث تصدر ( العراق الجديد) قائمة الدول الأكثر فساداً في العالم حسب معطيات مسح أجرته المنظمة في تسعة وستين بلداً، صنفت وفقاً لمستوى الفساد بين مسؤولي القطاع العام ورجال السياسة. ونشر التقرير في نيسان/ أبريل٢٠٠٩. ولا يخفى على احد حجم الانهيار السياسي والاقتصادي والأخلاقي الذي تتعرض له الدول والمجتمعات نتيجة انتشار الفساد وما سيترتب على ذلك من عودة إلى ظلام القرون الوسطى وما يعنيه من محاولة للتجهل المتعمد لكل أفراد المجتمع ، وانتشار الجريمة المنظمة التي هي توأم الفساد، إذ يغيب الشهود ومن يقف عقبة بوجه الاحتلال والنهب والفساد، بالقتل أو الاعتقال أو التهجير.

القائمة الثانية هي قائمة (مؤشر السلام العالمي)، الصادرة سنويا عن (معهد الاقتصاد والسلام الأمريكي)، ويبحث هذا المؤشر في أجواء السلام التي تنعم بها شعوب العالم، استنادا إلى (٢٣) مقياسا تشمل الحروب الداخلية واحترام حقوق الإنسان وعدد الجرائم وعدد السجناء وتجارة الأسلحة والديمقراطية.وقد احتل العراق المرتبة الأخيرة في مؤشر السلام العالمي ،مسجلاً المرتبة(١٤٤ )، وهي الأخيرة بعد أفغانستان، والكيان الصهيوني الذي حل في المرتبة ١٤١.وقد أظهر التقرير أن العراق لا يزال أكثر دول العالم خطورة للعام الثالث على التوالي وذلك نظرًا للأوضاع السياسية التي تعيشها البلاد وانتهاكات حقوق الإنسان.

أما القائمة الثالثة الصادرة في شهر حزيران / يونيو ٢٠٠٩ عن (مجموعة حقوق

الأقليات)، فقد أدرجت العراق في طليعة الدول التي تعيش فيها الأقليات الإثنية في خطر. واستخدمت المجموعة في تقييمها ما تواجهه الأقليات الإثنية من خطر الإبادة والمجازر الجماعية والقمع بالوسائل العنيفة. وقد حافظ « العراق الجديد» على موقعه بين الدول الخمسة الأولى الأكثر اضطهادا لأقلياتهم، كما في قائمة عام ٢٠٠٨. وقد وصف التقرير الملحق بالقائمة،العنف الذي تتعرض له الأقليات في العراق بأنه عنف منهجي ومتواصل.

أما بالنسبة إلى القائمة الرابعة وهي المعنية بمؤشر الدول الأكثر فشلا في العالم، الصادرة عن (مجلة السياسة الخارجية الأمريكية) بالاشتراك مع (صندوق السلام في واشنطن)، فقد أكدت أن (العراق الجديد) قد حافظ في عام ٢٠٠٩ وللعام الخامس على التوالي، على (مكانته المرموقة) في المركز السادس من بين الدول الأكثر فشلا في العالم. ويشمل البحث ١٢٩ دولة بينما تضم القائمة المعلنة ستين دولة. وترتكز قائمة الدول في تدرجها على نقطة أساسية وهي مقياس ضعف السلطة المركزية وبالتالي فشلها في أداء واجباتها والتي تنعكس على معايير مختلفة استخدمت للتوصل إلى النتيجة النهائية، ومن بين هذه المعايير:(المهجرون والنازحون قسريا، التدهور الاقتصادي، التنمية غير المتوازنة، شرعية الدولة، الخدمات العامة، الأجهزة الأمنية، والتدخل الخارجي).

وتشير القائمة الخامسة، الصادرة في أيار / مايو ٢٠٠٩عن (المركز الدولي لرصد النازحين داخل بلدانهم قسريا في العالم)، إلى أن (العراق الجديد) استحق بجدارة المركز الثالث في عدد النازحين قسرا داخل بلدهم والذين يقارب عددهم الثلاثة ملايين.

والقائمة السادسة الصادرة في تشرين أول / أكتوبر ٢٠١٠ عن (المعهد الدولي للصحافة) الذي مقره في فينا، فإن فيها تأكيد على أن العراق الجديد يحتل في الوقت

الراهن المرتبة الرابعة بين البلدان التي يقتل فيها أكبر عدد من الصحافيين، بعد المكسيك وهندوراس وباكستان. وخلال الفترة بين ٢٠٠٣ و٢٠٠٨ قتل ١٦٧ صحافيا في العراق، فيما أكدت قائمة أخرى صدرت عام ٢٠٠٩ عن (منظمة مراسلون بلا حدود ) ومقرها العاصمة الفرنسية باريس ، أن عدد الصحفيين الذين قتلوا في العراق منذ عام ٢٠٠٣ وحتى عام ٢٠٠٨ بلغ (٢١٠ ) صحفيين.

أما القائمة السابعة الصادرة في شهر تشرين أول / اكتوبر ٢٠١٠ ، فهي لمنظمة الأغذية والزراعة و منظمة الغذاء العالمي( التابعتين للأمم المتحدة)،التي يؤكدان فيها أن العراق الجديد صار من بين ٢٢ دولة في العالم يعانون سكانها من الجوع.

إن جوانب من صورة (العراق الجديد) وفقا لهذه القوائم فقط، تظهر الأوضاع الكارثية للبلد الذي تدعي الولايات المتحدة أنها صيرته أنموذجا في الرخاء والتقدم والازدهار والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان ، متجاهلة حقيقة أن الشمس لا يحجبها غربال وان الكارثة التي حلت بالعراق والعراقيين اكبر من أن تجمل بالأصباغ والتصريحان المنمقة ،وان الجريمة التي ارتكبتها الولايات المتحدة وحلفائها بحق العراق والعراقيين لا يمكن إنكارها بادعاء عدم الشعور أصلا بارتكابها ، فعدم شعور المجرمين بأنهم قد ارتكبوا ما يشين وما يستحقون عليه العقاب ينبع ( كما يقول الكاتب الأميركي نعوم تشومسكي ) من اعتقاد مشترك عند كل الأميريكيين وفي الغرب بأنهم يمتلكون العالم ، وعلى الجميع أن يقبل بهذا الاعتقاد ، ومن هذا المنطلق يخلص (تشومسكي) إلى أن الولايات المتحدة تتحدث عن المقاتلين الأجانب بالعراق وتقصد بهم بعض العرب ، ولكنها لا تقصد الأميركيين طبعا ، لان الأميركيين ليسوا أجانب بالعراق ، فقد احتلوا العراق وأصبح ملكهم [1].

(١) مقابلة مع نعوم تشومسكي ، مجلة ( Foreign Policy in Focus)، ٢٣/ ١/ ٢٠٠٨.

وفضلا عن ذلك أن الولايات المتحدة تحاول دائما وفقا لسياسة (الأقنعة) التي تلبسها لسياساتها أن تربط بين التهديد الذي يشكل خطر على الأمن القومي الأميركي ( كما تفترض ) وبين الأمن العالمي ، واستنادا لذلك فهي تشعر بأنها تقوم بمهمة تاريخية واخلاقية في احتلالها للعراق كجزء من محاولاتها لمواجهة معسكر الشر والظلم الذي يهدد وجودها والوجود الإنساني بمجمله ، لذلك فان الرئيس الأميركي السابق ( جورج دبليو بوش ) طالما أكد في خطاباته طوال ست سنوات (٢٠٠٣-٢٠٠٩ )،والتي تتناول قضية احتلال العراق، على انه يقوم بهذه المهمة الأخلاقية بإرادة من الرب وبإيعاز منه ، وهو ما يجعل الحرب على العراق ( وفقا لرؤيته هذه ) ليس خطأً وأنها حرب مقدسة ، وان أسباب تدهور الأوضاع يعود في جزءٍ أساسي منه إلى العراقيين الذين لا يعرفون كيف يتعاملون مع واقعهم المزدهر الجديد فيرتكبون الأخطاء ، أو نتيجة إساءة التصرف لمرحلة ما بعد الحرب ، وان انسحاب القوات الأميركية من العراق سيؤدي إلى نهاية مفجعة ، لهذا سيظل العراق بحاجة إلى وجود قوات وقواعد عسكرية أميركية على أراضيه لسنوات طويلة قادمة ، ومن هذا التبرير الزائف خرجت (الاتفاقية الأمنية عام ٢٠٠٨ ) التي هي جزء من إطار استراتيجي يحكم بإرادة أميركية حياة العراقيين بكل تفاصيلها ويؤبد على بلدهم الاحتلال.

ومن مفارقات السياسة الأميركية بعد رحيل إدارة الرئيس (جورج دبليو بوش) في كانون الثاني / يناير ٢٠٠٩ ومجيء إدارة ( باراك أوباما ) ، التصريحات التي تتحدث عن الانسحاب ضمن خطة تنتهي في نهاية عام ٢٠١١ ( كما سبق للاتفاقية الأمنية أن أشارت إليه ) في الوقت الذي يرفض فيه القادة العسكريون الأمريكيون هذه التوقيتات ويصفونها بغير الواقعية لان الوجود الأميركي في العراق لا يمكن أن ينحصر في إطار جداول زمنية ، كون المصلحة الأميركية هي التي تحدد نوع

السياسة وليس العكس ، ووفقا للعديد من السياسيين والاقتصاديين ومن شاركوا في التخطيط للحرب ضد العراق واحتلاله ، فان الانسحاب من العراق يعتمد على تحقيق الأهداف التي من اجلها تم احتلاله ، وطالما لم تتحقق هذه الأهداف فان الحديث عن الانسحاب يظل مجرد حديثا تتلخص قيمته في جعل الناخبين الأميركيين الذين أدلوا بأصواتهم لصالح التغيير ، وأملاً في الانسحاب من العراق يطمئنون إلى أنهم وضعوا أصواتهم في المكان الصحيح ، ثم ستتولى الإدارة الأميركية فيما بعد إيجاد المبررات والأعذار للتنصل من وعودها بدعاوى درء الخطر عن الأمن القومي الأميركي[1].

والحقيقة أن كل ذلك سيصطدم بالتأكيد بمعطيات واقعية، تجعل قضية التراجع عن وعد الانسحاب من العراق أشبه بمحاولات إطفاء الحريق بالوقود بدلا عن الماء .

(1)أزراج عمر ،إدارة أوباما ووعد الانسحاب من العراق ، مقالة، العرب أون لاين ، ٣١/ ١/ ٢٠٠٩

# الفشل الأمريكي

في كتابه ( الفوضى التي صنعوها : الشرق الأوسط بعد العراق ) الذي صدر في عام ٢٠٠٧ ، يقول الكاتب الأمريكي (جوين باير) وهو يقدم إدانته لقرار الرئيس الأمريكي (جورج دبليو بوش) بشن الحرب ضد العراق واحتلال عام ٢٠٠٣ : (إن الرأي العام الأمريكي يريد سحب قواته من هناك الآن وليس غدا ، ويعني هذا أن التحول في الموقف الأميركي بدأ يحدث قبل أن تتمكن إدارة بوش من حسم الموقف على نحو أو آخر . ومع إصرار الإدارة على البقاء هناك فلابد من أن تتزايد الخسائر ويتعمق المستنقع مما يضمن بصورة مؤكدة استمرار تجذير موقف الرأي العام بضرورة ترك الشرق الأوسط، بل أن أغلبية الأميركيين يقولون بصورة واضحة في استطلاعات الرأي العام، إن اسم الشرق الأوسط بات مرادفا في أذهانهم لكلمة مشكلة ولصور تتسم بالعنف والدم والكراهية للولايات المتحدة )[1].

ولعل رأي (باير) هذا الذي يوافقه علية الكثير من الكتاب السياسيين في العالم، يعبر بشكل واضح ودقيق عن اتجاهات الرأي العام الأميركي ، أما اتجاهات الرأي العام في الدول العربية فنجدها أكثر حدة ، فالولايات المتحدة لم تحظ بمستوى الكراهية الذي بات بعد احتلال العراق ، يطبع مواقف شعوب الدول العربية تجاهها بنحو غير مسبوق ، فقد أدى احتلال العراق إلى تعظيم هذه الكراهية برغم أن الشعب العربي لم يكن يثق ( بأي قدر) في السياسات الأميركية بالمنطقة، بسبب

(1)جوين باير ، الفوضى التي صنعوها :الشرق الأوسط بعد العراق ، ترجمة ، سعد جمول ،دار الثقافة الغربية ،٢٠٠٧، ص١٣٣

تاريخ العلاقة الخاصة التي تربط بين الولايات المتحدة والكيان الصهيوني ، والمعبر عنها عمليا بمواقف وممارسات وقرارات اتخذتها الولايات المتحدة ضد العرب ودولهم ،وعموم النظرة الدونية التي تتعاطى بها السياسة الأميركية والمسؤولين الأميركيين مع العرب طوال عقود عديدة مضت .

وفي شرح رؤيته لأحداث الحادي عشر من سبتمبر / أيلول عام ٢٠٠١ التي كانت الشرارة التي انطلقت منها الحرائق الأميركية التي نالت العديد من الدول والشعوب وفي مقدمتها أفغانستان والعراق ، يرى (جوين باير) بان ذلك الحدث كان هو الأسلوب المتاح لتحريك سطح البحيرة الراكدة[1].

وعلى أساس رؤية (باير) هذه ، تبدو تلك الأحداث وبعد سنوات عديدة على حصولها، قد تجاوزت في نتائجها كل الحسابات والتقديرات والتوقعات ، مع أن الغموض مازال يلف الجهة التي تقف وراء تلك الأحداث والأطراف التي قامت برسم خططها ووضعت آليات تنفيذها .وإذا كان الدخول في متاهة من قام بذلك العمل ولماذا ، مازال صعبا أو أن الحكم فيه لا يمكن أن يكون حاسما ودقيقا ، فان مراجعة ماطرا بسبب تلك الأحداث على منطقتنا والعالم واكتشاف المتضررين فعلا من عواقبها والمستفيدين ، قد يقودنا إلى قراءة اقرب إلى تلك الأحداث التي تم استعمالها فعلا لتغيير التوجهات السياسية في عالم القرن الواحد والعشرين ، فالنظر إلى ردة الفعل الأمريكية على تلك الأحداث تظهر اليوم وكأنها كانت مرسومة سلفا ، وقد فاقت كل التصورات، ليس في حدتها فحسب ، بل في خروجها عن موضوع الأحداث نفسها وتوجيه الانتقام لدول وأطراف ثبت بالدليل القاطع وباعتراف الولايات المتحدة نفسها ، أن لا علاقة لها بالأحداث واهم هؤلاء العراق والعراقيين . وبغض النظر عن صحة أو عدم صحة الروايات التي تم بثها عن

(1)المصدر نفسه ، ص٦٩ .

أحداث أيلول/ سبتمبر٢٠٠١ ، فان إعلان الحرب على الإرهاب بالشكل والطريقة التي اختارتها إدارة بوش إلى حد اليوم ، قد قادت إلى نتائج مختلفة تماما عما وعدت به تلك الدولة . وإذا كانت الحرب المزعومة على الإرهاب التي شنتها الولايات المتحدة بعد أحداث سبتمبر عام ٢٠٠١ ، قد وفرت لواشنطن فرصة ذهبية لزيادة نفوذها وهيمنتها على العالم ،وكانت ( القناع الأفضل ) في نظر المحافظين الجدد الذي أنتجته مصانعهم السياسية منذ عقود (( ظلت الولايات المتحدة خلالها تتحين الفرص لإعلان نفسها الإمبراطورية الوحيدة التي تحكم العالم من دون منازع ، بل وبمباركة الجميع وانصياعهم وبما يجعل القرن الحالي قرنا أميركيا تحقيقًا للشعار الذي رفعته (إدارة بوش الأب ) بعد انهيار الاتحاد السوفييتي في مطلع تسعينات القرن الماضي ))، إلا أن السنوات التي تلت أحداث (١١ أيلول / سبتمبر)٢٠٠١ وحتى اليوم، كانت كفيلة بإسقاط القناع وجعله وبالا على السياسة الأميركية بكل مفاصلها ،حتى مع إصرار واشنطن على عدم الاعتراف بالفشل وسقوط القناع عن وجه سياساتها القبيح ، فثمار حصادها الأشد مرارة من عبارة الفشل والذي لم يملك الرئيس الأميركي الثالث والأربعين للولايات المتحدة ( جورج دبليو بوش ) الشجاعة والجرأة للاعتراف به ،قد تم الاعتراف به فعليا من قبل الشعب الأميركي وهو يذهب لصناديق الاقتراع في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٨ لانتخاب الرئيس الرابع والأربعين ،ففي ذلك اليوم عبر غالبية الشعب الأميركي بانتخاب ( باراك أوباما ) عن رفض شعبي واضح لسياسة ( جورج دبليو بوش ) ولكل ما يرتبط به من حزب وشخصيات أسهموا جميعا في تحميل الولايات المتحدة خسائر فادحة ما كان يجب أن تتحملها .فحساب خسائر الولايات المتحدة في حربها واحتلالها للعراق، ومقارنة حجمها وتأثيرها ( مثلا ) بالخسائر التي تكبدتها الولايات المتحدة الأمريكية في مغامرتها السابقة في فيتنام ( التي قال بوش

يوم احتلال العراق بان صورة فشل أمريكا فيها قد تم مسحها أخيرا من ذاكرة الأمريكيين )، تظهر حقيقة أن الكارثة صارت أعمق في العراق بخاصة وأنها لم تنته بعد ، فحصادها الآني يشير إلى سقوط نحو خمسة آلاف قتيل (وفقا للأرقام المعلنة من قبل وزارة الدفاع الأميركية/ البنتاغون) وأكثر من (٧٠) ألف قتيل وفقا لأرقام هيئات ومراكز أخرى، وأكثر من (٢٠٠) ألف جريح، أكثر من نصفهم صاروا في أعداد المعاقين على الدوام[1] ، فضلا عن (ثلاثة) ترليون دولار أهدرت في تمويل العدوان على العراق واحتلاله من دون أن يتم تحقيق الأهداف التي كانت إدارة الرئيس الأميركي السابق ( جورج دبليو بوش ) تراها قريبة ، وقد اثبت واقع الحال أنها بعيدة .. وبعيدة جدا .

وإذا كان حكم التاريخ على مسببات وتفكك وانهيار الإمبراطوريات التي شهدها العالم عبر رحلته التاريخية الطويلة، يكاد أن يكون واحدا يتلخص في ،اتساع الهوة بين الإمكانات والقدرات من جهة وحجم وطبيعة الأهداف الموضوعة من جهة أخرى، وفي كون كل اتساع على حساب الآخر يقود إلى الترهل وفقدان السيطرة وتأكل مقومات القوة بنحو تدرجي يتسارع بعد مدة بما لا يعطي فرصة أو قدرة على تداركه أو مواجهته ، فإن هذا الوضع هو الذي تواجهه الولايات المتحدة اليوم بسبب سياساتها الهوجاء.

(1) نشرت دائرة المحاربين القدامى الأميركية United States Department of Veteran Affairs في موقعها الرسمي http://www.va.gov يوم ١٣ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٧ إحصائيات رسمية أمريكية وبجداول إحصاءات رسمية حول حقيقة حجم الخسائر الأمريكية في الحملة الحربية الأميركية الضخمة التي بدأت الولايات المتحدة تشنها على العراق منذ ١٩٩٠ حتى عام ٢٠٠٧. وأشارت الإحصائيات إلى أن حجم خسائر أمريكا منذ حرب الخليج ١٩٩٠ حتى عام ٢٠٠٧ هو : ٨٤٦،٧٣ قتيلا و ٩٠٦،٦٢٠ جرحى.

# العنصر الصعب

لكي تستوي صورة معادلة الوضع العراقي وعناصرها ،فلا بد من الحديث عن المقاومة العراقية (العنصر الصعب ) فيها، كونها أهم الأسباب التي جعلت الهوة تتسع بين إمكانات وقدرات الولايات المتحدة التي زجتها في الحرب ضد العراق واحتلاله من جهة ، وحجم وطبيعة الأهداف الموضوعة من جهة أخرى ، فالمقاومة استطاعت أن تجعل إمكانات وقدرات المحتلين برغم اتساعها وثقل وزنها على الأرض،قاصرة عن بلوغ الأهداف،فالحديث عن الاحتلال الأميركي للعراق ، يعني بالضرورة الحديث عن الدور التاريخي والاستثنائي الكبير للمقاومة العراقية بكل فصائلها ومستوياتها ، في وضع الاحتلال في المأزق وتحويله إلى مأزق للمشروع الإمبراطوري الأميركي برمته في العالم، وبما جعل السيطرة على العراق وإخضاعه للإرادة الأميركية ، يفوق قدرات أمريكا وإمكاناتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية، الأمر الذي حول احتلال العراق إلى عبء قاد الولايات المتحدة إلى التفكير بالتراجع، وانكشاف وهم أمريكا في اعتبار ( القوة ) هي العامل الحاسم في كل صراع ، وخطأ الاعتماد بأن على الجيوش المدربة والمجهزة بأكثر الأسلحة تطورا وفتكا كفيل بتحقيق الأهداف ، وقد عبر عن ذلك بلغة دقيقة وعملية العديد من القادة العسكريين والاستراتيجيين الأمريكيين، كالجنرال ( بيتر بايس) الرئيس السابق لهيئة الأركان المشتركة الأميركية ، الذي أدلى في شهر فبراير / شباط ٢٠٠٧ بشهادته عن الحرب في العراق أمام الكونغرس الأميركي قائلا: ( أن القوات الأميركية في حال تآكل ، إنها مخاطرة كبرى أن يتم تقييدها بتحقيق مطالب وأهداف الحرب على

العراق...إن القوات الأميركية لن تستطيع والحال كذلك أن تتجاوب وبشكل كامل ومؤثر مع متطلبات أي أزمة جديدة يمكن أن تنشأ وتستوجب الحرب) [1].

ولعل الكلام الذي قاله قائد القوات المسلحة البريطانية المارشال ( جون ستيراب) وهو يدلي بشهادته أمام لجنة الدفاع في مجلس العموم البريطاني عن أوضاع الجيش البريطاني في العراق واستمرار الوجود البريطاني هناك، لا يختلف في جوهره عن الكلام الذي قاله الجنرال الأمريكي(بيتر بايس)، إذ قال: ( أن التزامات بريطانيا في العراق لن تسمح بأي تورط في أي قتال واسع لسنوات قادمة ) [2].

ولعل المأزق الذي وضعت الولايات المتحدة نفسها وحلفائها فيه يوم احتلت العراق ، هو الذي دفع صحيفة (لوس أنجلوس الأميركية) لان تنقل في عددها الصادر يوم ١٢/ ٣/ ٢٠٠٧ عن لسان مسؤول في وزارة الدفاع الأميركي (البنتاغون ) قوله عن الحرب في العراق : (أن هذا الجزء من العالم لديه حساسية شديدة تجاه الوجود الأجنبي وأن أمام الجيش الأميركي فرصة قصيرة نسبيا).

إن هذا التوجه وهذا الفهم لطبيعة الاحتلال الأميركي للعراق ، يؤكده أيضا لعديد من المنظرين والسياسيين الأمريكيين المميزين ، ومنهم (زبينغو بريجنسكي ) مستشار الأمن القومي الأميركي الأسبق ، الذي حذر المسؤولين الأميركيين من مغبة استمرار احتلال العراق وقال في مقالة له بعنوان: ( خارطة طريق للخروج من العراق ) نشرت في العديد من الصحف الأميركية عام ٢٠٠٧: (( أن الحرب في العراق كارثة تاريخية استراتيجية وأخلاقية نفذت بموجب افتراضات زائفة وهي تقوض شرعية أميركا العالمية ... أن على الولايات المتحدة أن تؤكد بشكل واضح نيتها بمغادرة العراق ، وان تعلن عن أنها ستبدأ في إجراء محادثات مع القادة

(١)صحيفة واشنطن بوست ( الأميركية ) ، عدد يوم ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٧

(٢)مجلة تايم ( البريطانية ) عدد يوم ٧/ ٣/ ٢٠٠٧

العراقيين- الأصليين - الذين يستطيعون الوقوف على أقدامهم ، أولئك الذين يمتلكون سلطة حقيقية خارج (المنطقة الخضراء) ، لان النظام العراقي الذي تعتبره إدارة بوش ممثلا للعراقيين ، محصور في مساحة محددة بأربعة أميال مربعة داخل القلعة الأميركية في بغداد ، وهو محمي بالقوات الأميركية وبجدار سمكه ١٥ قدم »[١].

ومما لاشك فيه فأن هذه النتيجة التي توصل إليها العديد من القادة العسكريين والاستراتيجيين الأميركيين والبريطانيين وغيرهم، لم تكن لتصبح حقيقة يتم التعامل معها و يتم وضعها في مكانها الصحيح داخل حسابات الهزيمة وحسابات النصر، لولا المقاومة العراقية التي ظلت تسبح وتتحرك بالاتجاه المعاكس لمحاولات تيئيس العراقيين التي كانت من الأهداف الأساسية والجوهرية في برنامج قوى الاحتلال وعملائه، فالمقاومة العراقية وطوال السنوات الست الماضية ، قدمت على الساحة العراقية أنموذجا رائعا في مواجهة المحتلين وتقزيم قدراتهم برغم كل إمكاناتهم البشرية الكبيرة وامتلاكهم لوسائل وتجهيزات وامتيازات هائلة ، في مقابل الإمكانات والقدرات المادية المحدودة للمقاومة وحركتها الصعبة في طبيعة منبسطة وسهلة يصعب الاختفاء والمناورة فيها ، على عكس ما كان متوفرا للمقاومة الفيتنامية (مثلا)، وفي ظل انقطاع كل سبل الدعم الخارجي على عكس تمتع كل المقاومات في جميع أنحاء العالم ( قديما وحديثا) بالدعم المادي والمعنوي والبشري أحيانا من أماكن واتجاهات عديدة .

وعلى العكس ما تروج له إدارة الاحتلال الأميركي وأعوانها من قوى العملية السياسية ( وحكومة المنطقة الخضراء) عن انكفاء أعمال المقاومة وقدرة قوات الاحتلال وقوات الحكومة الحالية وشركات المرتزقة الخاصة مثل( بلاك ووترز ) وغيرها على تحجيم قدرات القوى المناهضة للاحتلال . فان تقرير لمكتب المحاسبة الأميركي نشر في شهر تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٨ ، قد فند كل ذلك وكشف في صفحاته التي

(١)صحيفة واشنطن بوست ( الأميركية ) عدد يوم ١٩/ ٦/ ٢٠٠٧

قدمت إلى الكونغرس الأميركي ، أن مستوى عمليات المقاومة العراقية ضد ( القوات الأميركية وقوات الدول الأخرى المتحالفة معها في العراق ) كانت هامة جدا ومؤثر ، فعدد عمليات المقاومة العراقية وفقا لذلك التقرير على سبيل المثال خلال ثلاثة أشهر هي ( مارس وابريل ومايو ) عام ٢٠٠٨ ، تجاوزت (٣٨٥٠) عملية[1] .

ومن خلال حسابات بسيطة يتبين أن المقاومة العراقية وفقا لتقرير مكتب المحاسبة الأميركي ،قد نفذت أكثر من (٤٢) عملية يوميا في تلك الأشهر التي قالوا أن المقاومة انكفأت بها ، فيما كان واقع الحال يؤكد أن نحو عمليتين للمقاومة كانت تستهدف قوات الاحتلال في الساعة الواحدة ، ولعل انتقال فعل المقاومة مع مرور الوقت إلى تنفيذ العمليات النوعية ، هو مؤشر واضح على قدرة المقاومة العراقية على اجتياز مرحلة الثبات والمقارعة واتساع خبرتها القتالية ،على عكس ما تدعي قوات الاحتلال وقوات الحكومة الحالية المساندة لها .

إن نجاح الاستراتيجية التي اتبعتها المقاومة العراقية في إطار مواجهة خطط الاحتلال، قد أفرز بالضرورة وعيا شعبيا بان المقاومين العراقيين للاحتلال قد استطاعوا :

١. النجاح في إسقاط محاولات المحتلين وأعوانهم على تسويق أنفسهم بأطر شرعية وقانونية مستمدة من الشارع العراقي، عبر القول بأن صناديق الاقتراع هي التي حملتهم إلى كراسي الحكم وفوضتهم اتخاذ القرارات وتشريع القوانين .

٢. إفشال كل خطط الاحتلال الرامية إلى تقوية الأحزاب والقوى والشخصيات المساندة لها والداخلة في العملية السياسية،ومحاصرتهم داخل أسوار محميات المحتلين وأولها المنطقة الخضراء وفضح جرائمهم وفسادهم.

٣. إسقاط مخططات المحتلين الهادفة إلى جر المقاومة إلى ساحات صراع هي ليست

(1)تقرير مكتب المحاسبة الأميركي ، صحيفة العراق الالكترونية،العدد ٧٢١ ،تشرين أول/ أكتوبر ٢٠٠٨

ساحاتها الفعلية ، من خلال الممارسات الطائفية والإجرامية ، المعبر عن صور أساسية منها في استهداف العراقيين بالقتل والتنكيل والاعتقال والترهيب بفرق الموت والميليشيات وقوات حكومات الاحتلال المتعاقبة ، فضلا عن قدرة وعي المقومة على إفشال محاولات دفع المقاومة للتواجد في ساحات مشبوهة ورمادية وأماكن معدة سلفا ، لغرض تشويه صورتها ، وبما يسمح أيضا القول أن المقاومة تستهدف المدنيين العراقيين ، وهي فرية طالما استعملتها قوى الاحتلال كجزء من حملات التضليل التي تجري فيها صناعة أحداث معينة يذهب ضحيتها أعداد من العراقيين ، أو تتعطل بسببها إمكانية استفادة العراقيين من مورد معين .لكن استمرار المقاومة على خطها الجهادي الواضح قد افشل كل هذه المحاولات ، وأدى إلى اتساع مساحة رؤية العراقيين بوضوح ، وتعاظم وعيهم وقدرتهم على الفرز بين الإرهاب والمقاومة وشكل وطبيعة وانتماء من يقف وراء هذا العمل أو ذاك ،وبالتالي فشل مراهنة المحتلين وأعوانهم على نجاح المشروع الطائفي بكل ترتيباته وأطره الدينية والعرقية .

٤. الانتصار على محاولات الإغراء والترغيب ، التي طالما مارستها إدارة الاحتلال الأميركي ، لغرض سحب البساط من تحت أقدام المقاومين وإسقاط القيم النبيلة التي يتخذونها إطارا ومنهجا لوجودهم وعملياتهم ، فضلا عن الانتصار على محاولات شق صفوف المقاومة وبث الخلافات بين فصائلها من خلال استعمال الإعلام في طرح الإشاعات والإيحاء أحيانا بمحاباة فصائل ومعاداة فصائل أخرى ، وتسويق قصص وهمية عن لقاءات وحوارات واستعمال شهود عيان ملفقين ومدربين جيدا يدلون بتصريحات كاذبة هدفها زعزعة ثقة العراقيين بالمقاومة ،وخلق انشقاقات داخل جسد المقاومة ، وغيرها من الأفعال التي كان وعي المقاومين اكبر بكثير من كل ترهاتها ، الأمر الذي حصن المقاومة ومنع انجرارها ووقوعها بمثل هذه الفخاخ الخبيثة .

٥. نجاح المقاومة في المحافظة على نفسها الطويل ، وتقسيم جهودها وفقا لطبيعة الميدان وزمن الشوط ومن دون المغامرة بزج قوتها أو جزء كبير منها في معركة واحدة وفي ساحة سبق للأعداء أن اعدوا مسرحها مسبقا ،فالنجاح في استثمار القوى والإمكانات بشكل صحيح ،واختيار وقت المواجهة وساحتها ، كان واحدا من العناصر الرئيسية في استمرار المقاومة العراقية ،وعدم قدرة المحتلين على استهدافها بنيران كثيفة وبقوى كبيرة ، أو إجبارها على تقديم تضحيات يمكن تجنب تقديمها .

٦. نجاح المقاومة في إثارة الرعب في نفوس أفراد قوات الاحتلال وقوات حكومات الاحتلال ، وقد أشارت الكثير من الدراسات الأميركية التي أعدت لغرض تقييم الوضع النفسي لقوات الاحتلال ، إلى أكثر من (٧٠) بالمئة من أفراد هذه القوات يعانون من (رهاب) الوجود خارج قواعدهم وثكناتهم ، فالعديد من الجنود الأميركيين والبريطانيين الذين أدلوا بأحاديث عن وجودهم في العراق أو كتبوا مذكرات عن تجربتهم هذه ، أكدوا أن أصعب أوقاتهم وأكثرها رعبا عندما يأتيهم الأمر بركوب عرباتهم( حتى وان كانت مدرعة) ، والنزول إلى الشوارع أو المسير في الطرق وصولا إلى مكان أو هدف معين ، فالموت على أيدي المقاومين (وفقا لأحاديثهم ) سيكون متربصا بهم في كل مكان ،كما أن الدراسات أشارت إلى أن نحو (٦٠) بالمئة من جنود الاحتلال الأميركي باتوا بحاجة ماسة إلى تلقي العلاجات النفسية ، فضلا عن حالات الهروب وحالات تعاطي المخدرات وحالات الانتحار والتخلف عن الخدمة العسكرية ،ورفض دعوات الدخول في إلى الجيش سواء في أمريكا أو في بريطانيا ، والتي باتت تشكل ظاهرة لا يمكن التغاضي عنها ، كنتيجة فعلية من نتائج الخوف الذي زرعته المقاومة العراقية في قلوب الأعداء.

٧. نجاح المقاومة في توسيع مساحة القناعة الشعبية ،في أن كل الترتيبات التي حصلت في ظل الاحتلال وحكوماته المتعاقبة ،لابد ستسقط بعد رحيله وأنها وإن

طال زمنها ستبقى ترتيبات طارئة ومؤقتة ، فضلا عن القناعة الشعبية بأن رموز الحكم والسياسة الذي جاء بهم الاحتلال ،هم جزء من تلك الترتيبات الطارئة ، وان مصيرهم بالزوال مرتبط بزوال الاحتلال ،وأنهم لا يمتلكون شرعية في كل الاتجاهات. ، ولعل تعاطيهم بسلبية واضحة مع هموم الناس ، والتنصل عن كل الشعارات التي رفعوها في إطار الحديث عن الحرية والديمقراطية والازدهار والتطور وغيرها ، والانكفاء بنحو واضح على عمليات السلب والنهب ، والاستفادة من فرصه الحكم في تعزيز مواردهم المادية ،منطلقين من شعور عام وراسخ وصحيح بان وجودهم طاريء ، وأن إعدادهم لخطط هروبهم يجب أن يكون دقيقا ، وقابلا للتنفيذ في أي لحظة .

٨. نجاح المقاومة بتوسيع دائرة القناعة الشعبية ، بان المحتلين وأعوانهم لا يملكون القدرة على الانتصار على المقاومة، وأخرجها من الميدان، وان المعركة في النهاية ستحسم لصالح المقاومة وقواها الوطنية .

٩. نجاح المقاومة في فرض نفسها ( في معادلة الصراع)، كلاعب رئيسي معبر عن طموحات العراقيين ومطالبهم المشروعة في تحرير العراق وتقرير المصير، بعيدا عن اي تأثيرات ، في مواجهة قوات الاحتلال وأعوانها الذين يقفون في الطرف الثاني من المعادلة .

١٠. نجاح المقاومة في فرض نفسها ، طرفا في معادلة التوازن العسكري مع قوات الاحتلال والقوات المحلية التابعة لحكومات الاحتلال ، برغم عدم وجود فرصة للمقارنة في التسليح وعديد القوات والإمكانات اللوجستية لكل طرف في المعادلة ، إذ أن معادلة التوازن العسكري هذه قد فرضت عمليا ،من خلال قدرة المقاومة على إنزال الخسائر المادية والبشرية بقوات الاحتلال ، وإمكانيتها في زيادة وتوسيع رقعة هذه الخسائر واستمرارها .

# انسحاب أم هزيمة؟

ربما كان المشهد المثير الذي نقلت صوره كل وسائل الإعلام يوم ١٤ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٨ ، مشهد قيام الصحفي العراقي منتظر الزيدي وهو يرجم الرئيس الأمريكي (جورج دبليو بوش) بفردتي حذائه ، عندما جاء الأخير في زيارة وداعية للعراق يختم فيها سنوات حكمه ويتباها فيها باحتلاله العراق ، قد اختصر الطريقة الاحتجاجية والاستنكارية الرافضة ،التي تعتمر صدور العراقيين إزاء الرئيس الأميركي الذي اكتووا بنيرانه ونيران جيوشه التي احتلت بلادهم وعاثت بها تدميرا وقتلا وتنكيلا وتفتيتا .

إن أهم دلالات ذلك المشهد تتركز في فضح الهزيمة الأميركية ، فبعد ست سنوات من الاحتلال الأميركي للعراق ، والادعاء بأن العراقيين قد تم تحريرهم وهم يعيشون في زهو وسعادة في ظل الحرية والديمقراطية والأمل ، الذي جاءت بها الولايات المتحدة كهدية لهم .. جاء مشهد رجم بوش بالحذاء وفي داخل المنطقة المحصنة ( المنطقة الخضراء ) ، كرد واقعي على كذب كل الادعاءات بان العراقيين يتغنون بتحرير الولايات المتحدة لهم، وتأكيد على فشلها وعدم قدرتها على تحقيق الأهداف التي وضعتها أساسا لاحتلال العراق ، وفي مقدمتها ترويض العراقيين وإخضاعهم ، وجعلهم مجرد قطيع في إحدى المزارع الخلفية للولايات المتحدة.

وفق كل هذا ، فإن إعلان الرئيس الأميركي الرابع والأربعين (باراك أوباما) يوم ٢٧ فبراير / شباط ٢٠٠٩ ،عن خطة طريق لسحب القوات الأميركية من العراق وإنهاء العمليات القتالية الأمريكية في العراق في ٣١ أغسطس / آب ٢٠١٠ ، مع

بقاء ٥٠ ألف جندي للتدريب القوات العراقية لحين انسحابها أواخر عام ٢٠١١ ، يعتبر ناتج طبيعي ومنطقي لمأزق أمريكا في العراق الذي صنعته لها المقاومة العراقية ( بغض النظر عن حقيقة الانسحاب وطبيعته ) ، أما من يدعون بأن قرار (أوباما) بالانسحاب من العراق قد جاء نتيجة لانتهاء المهمة الأميركية وتحقيق الأهداف ، فأن ادعائهم هذا لا يمكن أن يصمد في وجه الخسائر الأميركية المتعاظمة على المستويات السياسية والعسكرية والاقتصادية ، وهي خسائر كارثية اعترف بها غالبية المسؤولين الأميركيين ، ومنهم من كان مشاركا في الإعداد للحرب ضد العراق واحتلاله مثل (جوزيف كوليتز) ، الذي شغل بين الأعوام ٢٠٠١-٢٠٠٤ منصب مساعد وزير الدفاع الأميركي السابق (دونالد راميسفيلد) ، والذي قال في دراسة له بعنوان : ( اختيار الحرب ..القرار باجتياح العراق ونتائجه ) نشرتها جامعة الدفاع الوطني الأميركية:( أن تلك الحرب مثلت هزيمة نكراء ، فإذا قسنا الحرب في العراق بالدم الذي أزهق والمال الذي صرف ، فأنها بحق تشكل كارثة مكلفة ستستمر الولايات المتحدة بدفعها ، في ظل احترام اقل في العالم ، واتكال اكبر على الجيش وتأثير سلبي بالنسبة لما تسمى الحرب على الإرهاب ) [1] .

وعلى الرغم من المخاوف التي يثيرها البعض من التواجد والدور الإيراني (داخل العراق ) ، ومن إمكانية أن تسعى إيران إلى ملء الفراغ الذي يحصل في حالة الانسحاب الأميركي في العراق ، فان واقع ومعطيات السنوات الماضية من الاحتلال ، تؤكد أن القوى المناهضة والمقاومة للاحتلال التي أجبرت الولايات المتحدة على الانكفاء بمشروعها الإحتلالي ،وكبدتها خسائر جسيمة ، وحولت الاحتلال الذي كانت تراه (نزهة) إلى(كابوس) ، قادرة فعليا على ملء أي فراغ امني

(1)جوزيف كوليتز ، اختيار الحرب .. القرار باجتياح العراق ونتائجه ، صحيفة العراق الالكترونية ، تموز ٢٠٠٨

قد يحصل ، كما أن رحيل قوات الاحتلال سيكون بمثابة لطمة قوية لكل القوى التي ساندت المحتلين وعبثت بأمن ومقدرات العراقيين ، وفي مقدمتها أذرع إيران في العراق ،بخاصة وان الولايات المتحدة وإيران لم يستطيعا خلال سنوات الاحتلال الماضية ،خلق قاعدة جماهيرية مؤيدة أو تابعة لهم ، وحصتهم بعد كل ما جرى لا تتعدى رجالات السلطة وطبقة السياسيين المعزولين عن الشعب ، والذي هرب الكثير منهم بعد أن اعتقد بأنه قد أمن جانبه المادي من أموال العراق المنهوبة ، أما الجزء المتبقي منهم فسيلحقون المحتل حال خروجه.

**لماذا كل هذا الكلام وما علاقته بما سيأتي؟**

أولا: إن الكارثة التي حلت بالعراق والعراقيين نتيجة الاحتلال عام ٢٠٠٣،كانت ولازالت أشبه بـ(كرة الثلج) التي يكبر حجمها بحركتها ومرور الزمن، وهي تلم بين طبقاتها المتلاصقة ببعضها ، كل المشاهد بشخوصها وألوانها وطبائعها ومكوناتها ، من المشهد الأول حتى المشهد الراهن،لذلك فان كل ما سيأتي في الصفحات اللاحقة له علاقة بكل ما قلناه ،لأنه تحرك على الأرضية ذاتها وفي ظل نفس المناخ،حتى وان اختلفت الفصول .

ثانيا :إن نظرية الفعل ورد الفعل ، لها تطبيقاتها العملية والواضحة على الأرض، ولما كان الاحتلال فعلا كبيرا كان وقعه على العراق والعراقيين كوقع الزلازل أو انفجار البراكين، ولابد إزاء ذلك أن تكون هناك ردود أفعال أو هزات ارتدادية أو مخلفات بركانية، فما يحصل اليوم هو ابن شرعي لما حصل بالأمس وما يحصل غدا له وشائج النسب بما يحصل اليوم ،وعلى هذا فإن ما سيأتي في الصفحات اللاحقة، سيفسر الكثير من الظواهر وسيميط اللثام عن الكثير من الأحداث ويسهل قراءة وفهم الدواعي والمسببات .

ثالثا: إن صورة ما حصل في العراق منذ عام ٢٠٠٣ وحتى اليوم ، تشكلت

بمشاهد وأحداث عديدة،وكان لابد من العمل على تحريض ذاكرة من كان شاهدا على تلك المشاهد والأحداث أو كان جزءا منها ( صانعا أو مؤثرًا أو مشاركًا) لكي يعيدوا رواية الأحداث مثلما حصلت وليس مثلما صورت، وما عرض بعض التجارب إلا محاولة لكشف الحقيقة وشحذ وعي الناس لكي يقارنوا ويستخلصوا الأمثولات والدروس التي تفيد في شحذ قدرات العراقيين على إنقاذ العراق والخروج من المحنة .

رابعا:إن أحداث التاريخ لا تهبط بالمظلات ، أو تأتي معلبة عبر البريد. فالأحداث، صناعة بحلقات مترابطة ،وان بدت للبعض على غير ذلك،وكل حدث (يصنع ) يأخذ على الفور مكانه كحلقة في مسبحة الأيام، فيصير جزءا رابطا أو مكملا لأحداث سبقته أو ستصنع بعده. وعلى هذا فإن ما سيأتي لاحقا لا يمكن فصله عما جرى سابقا، ومن يريد أن يلم بالصورة لابد أن يطلع على كل مشاهدها.